

ل ١٤١٥ / ١٥٩٩

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

الفكر العربي

العدد الحادي والثلاثون كانون الثاني (يناير) - آذار (مارس) ١٩٨٢ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشر	د. إحسان عباس	د. شكري فيصل
الشيخ عبدالشدد العلالي	د. عمر التومي الشيباني	د. عبدالسلام المسدي
د. مصطفى الشار	د. معن زيادة	د. ابراهيم رفيعة
		رئيس التحرير
		رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

الهيئة القومية للبحث العلمي

طرابلس ص.ب. ٨٠٤

الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية



معهد الإنماء العربي

بيروت - لبنان

ص.ب. المجلة : ١٤ / ٥٥٦٤ ص.ب. المعهد ١٤٠٣

التمن : ٢٠٠٢ ل.ل. أرميا بغداد لها

تاريخ الاستشراق الالمانجي

د. أحمد حسن عبد السلام

في العمق، لا يمكن الحديث عن الشرق، والكتابة عن الشرق، إلا إنطلاقاً من شيء ما لا يبدو أنه الأرضية أو اللغة، (الشرق «الحقيقي، الجغرافي»)، ولكن من ماضي خطاب عن الشرق، من موقف، من مرجع لمرجع، من الحديث عن شيء ما لأشخاص لا يريدون معرفة أي شيء عنه، وبالنسبة لهم فإن ما تقوله هو مرجع كامل لا يمكن وضعه موضع الشك.

إن ما يتم الحديث عنه، هو الآخر، غير القابل للمعالجة، المحيّد، حتى منذ لحظة الدنو منه: لا مجال للشرق لممارسة البرهنة العلمية، حقيقة الأرضية، ووجود كائنات بشرية تملأ جغرافية ما. ولكن لفكرة قابلة للتوسيع حتى اللانهاية لأن المرجع ليس مرفوضاً، ولكنه محوّل إلى غير عملي بواسطة المناهج وما تؤول إليه، وليس الأمر هو البحث عن الجسد في النص، أو الاعتقاد بأن جزءاً يمكن له قول كل شيء هو أفضل من الاقتراب الصعب والمعقد (أو المحتقر من قبل كل شيء).

المستشرق هو الفاعل حيث الشرق هو المفعول به المحدّد، ليس هناك من ربط أكثر عرضية من هذا الإغلاء المرن لحقيقة، في جزء منها، أو في قطعة مرئية من قبل كل الناس في حلمهم، حساسيتهم، ثقافتهم أو على الأقل من الشرفة، وحيث الجزء الآخر متروك لبرهنة الجغرافية أو التاريخ؛ إنه حضور النص كدليل غير قابل للنفي.

الشرق الأوسط ينهك ذاته على تلك الأرضية المتحركة في رغبته لإثارة حرفية لما كان فعلاً، لما يعتقد بأنه كان فعلاً، ولديه الشعور بأنه قد سُرق منه بمهارة وسرعة. أمام الفكرة التي تكاد تكون مادية للذوبان البطيء للتاريخ، تأتي الأضواء الباردة للمنهج وللتقنية، ومسألة صورة الشرق كما يرسلها إليه الاستشراق، وكما يجد حلها هو بنفسه وبهذه التقنيات نفسها والتي يعيب عليها أصولها الأجنبية.

الشرقي يكتشف ذاته كموضوع لنظرة كلية لما هو عليه، حيث لا مجال له لقول شيء ما، ليس فقط لأن لا

مجال لديه إلا أن يكون مستبعداً من الخطاب (خطاباته هي موضوعات تطبيق وليست أبداً إنتاجاً لفاعل مستقل داخل ثقافة العالم)، ولكن محلاً لهذا الخطاب، يرى بأن هذا الأخير لا يتعلّق إلا بمراجعته الخاصة به وما يعيده إليه ليس إلا خطاب الفاعل الأول؛ إذن، عندما يختفي الفاعل ليترك المكان لخطاب علمي، يفقد الواقع موطئ قدمه ولا يعود لدينا سوى اللغة (كمرجع وحيد).

الشك والاستفهام لا يبدوان إلا كمواطن ضعف أخلاقية، إن جزءاً كاملاً، وهو الأكبر، من الإستشراق الألماني تحرك من رهان أساسي وأعمى ولم يعه حقاً أبداً: لا وجود للشرق، وحدها اللغة توجد، وأيضاً كان يمكن للشعوب أن تختفي منذ ألوف السنين دون أن يتغيّر شيء ما.

الاقتراب الألماني من العالم العربي والإسلامي كان دائماً لغوياً وألسنياً، إنه شرط أول بالتأكيد ولكن البقية لم تأت أبداً، أو أتت متأخرة جداً، وهذه إحدى الركائز الأكثر تحديداً، وبعض المستشرقين الذين حاولوا كسر القالب، كانوا قد اعتبروا دائماً كهزليين متعاطفين ووبائيين، أو كسائحين منذهلين قليلاً.

وقياساً إلى أن الواقع الوحيد المعترف به هو اللغة، فإن كل شيء يبدو أكثر سهولة، إن البنية الخاوية تفتح المجال لكل الاحتمالات، وكل شيء يتعلق بما يمكن حمله معنا: سحر فقه اللغة، اللغة كمركبة، البحث الدقيق لكي نطرد الخوف، والجهل، والقربين اللامفهوم والمخيف.

نوفاليس وهولدرلين يمثلان شرقاً آخر (شرق هذه الفكرة الألمانية ذاتها)، شرق كثير الإزعاج لكي يكون مقبولاً، أو محلاً أو موضوعاً في كرسي جامعي، أو مشروع موسوعة؛ لأنه أمام الحزن الألماني والتقنية الألمانية، ليس الموضوع هو صحة غوته القوية، بل الجنون، والموت المبكر، والإحساس بكلية الأشياء المدفوع إلى نهاية المطاف، والنقيض للتوازن الصحيح وللقياس.

إن الألماني يحشر أنفه في أقرب نقطة من النص، ومن هنا فإن وفاءه هو الأقل إثارة للجدل، إن مناهج البحث المعمول بها، لا حدود لها إلا تلك التي تضعها لذاتها (نيتشه يبدو بالنسبة للألمان هامشياً جداً، وأوروبياً، إنه عالم لغة في الحقول، شاذ، هذا ما يمكن أن يعطيه الماخور في بال).

اللغة العربية والعالم الإسلامي، المسبورين من قبل اللغة الألمانية يطرحان أيضاً المشكلة الأكثر عمومية للعلاقة بين التقنية واللغة، وبينها وبين الحضارة. هذا ما يعنيه الانتظام والتقنية للإمساك بما يمكن له أن يكون الفوضى والبدائية العربية) ذلك أنه لا مجال للهروب بعد الكشف الدقيق الذي يؤول إليه هذا المنحى الهستيري، بحيث أنه لا شيء يفوتك؛ لهذا الذي بصدده لسنا متأكدين تماماً بأن طموح الكلية هو الفرصة الوحيدة لمحاصرة الشك؛ وفي الحدّ المقابل، فإنه عندما ترى حضارة ذاتها، فإن الآثار المادية تصبح قليلة الأهمية.